# المدرسة القرآنية وأثرها في تقوية النظام التربوي

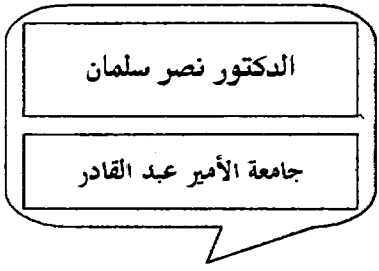


"القرآن كتاب الإنسانية العليا استشرفت إليه قبل أربعة عشر قرنا حين ضامها أبناؤها فعقُّوها. فارتكسوا في الحيوانية السفلى. فأخلدوا إلى الأرض. فأكثروا فيها الفساد. فأنزله الله من السماء ليصلح به الأرض وليدلَّ أهلها المستخلفين عليها من بني آدم على الطريق الواصلة بالله ويجدد ما رثَّ من علائقهم به.

وما أشد شبه الإنسانية اليوم بالإنسانية قبيل نزول القرآن. في جفاف العواطف. وضراوة الغرائز. وتحكم الأهواء. والتباس السبل. وتحكيم القوة. وتغول الوثنية المالية. وما أحوج الإنسانية اليوم إلى القرآن. وهي في هذا الظلام الحالك من الضلال. وقد عجز العقل عن هدايتها وحده. كما عجز قديما عن هدايتها. لولا تأييد الله له بالأمداد السماوية من الوحي الذي يقوي ضعفه إذا أدركه الوهن. ويصلح خطله إذا اختل ميزانه"[1].

هذا هو صنيع القرآن الكريم أنزله الله من السماء ليصلح به الأرض فتلقفه المؤمنون حفظا وتطبيقا. فولدت أول مدرسة قرآنية في التاريخ الإسلامي في عهد الخليفة الثاني عمر بن الخطاب ﷺ إذ أمر عامر بن عبد الله الخزاعي بجمع أولاد المسلمين لتحفيظهم القرآن الكريم. وأمره

1 ــ هذه المقولة للشيخ البشير الإبراهيمي دبجها يراعه عند تقديمه لتفسير الشيخ ابن باديس. ط المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، الرغاية، الجزائر 1991، ص 28.

أن يلازمهم للتعليم. وقد جعل رزقه من بيت المال. وكان الأولاد منهم الذكي والبليد. فأمره أن يكتب للبليد في اللوح ويلقن الذكي من غير كتابة، كما أمره بالجلوس بعد صلاة الصبح إلى الضحى العالي، ومن صلاة الظهر إلى صلاة العصر ثم يستريحون بقية النهار إلى أن خرج للشام عام فتحها فمكث شهرا ثم إنه رجع إلى المدينة. وقد استوحش الناس لغيابه. فخرجوا للقائه. فتلقاه الصغار على مسيرة يوم وكان ذلك يوم الخميس فباتوا معه ورجع بهم يوم الجمعة. فتعبوا في خروجهم ورجوعهم فشرع لهم الراحة يومي الخميس والجمعة. فصار ذلك سنة تتداولها المدارس القرآنية في عطلتها الأسبوعية إلى يوم النّاس هذا [1].

ومنذ أن أسس عمر بن الخطاب ﷺ المدارس القرآنية وجموع المسلمين تقتفي آثاره، وتسير على خطاه في تأسيس هذه المدارس عبر العصور الإسلامية.

هذه المدارس التي بوأت المسلمين مكان القيادة والريادة عبر التاريخ فجعلت من رعاة الإبل قادة. ومن أجلاف الأعراب سادة. وصدق من قال:

كانوا رعاة جمال قبل نهضتهم ... وبعدها ملأوا الآفاق تمدينا

لو كبرت بنواحي الصين مئذنة ... سمعت في الغرب تهليل المصلينا

هذه المدارس القرآنية التي تركت فكتور روبنصون يقول بعد كلام طويل في موازنته بين الحضارة الإسلامية في الأندلس. وحضارة أروبا في القرون الوسطى: "... وكان أشراف أروبا لا يستطيعون توقيع أسمائهم بينما كان أطفال المسلمين في قرطبة يذهبون إلى المدارس. وكان رهبان أروبا يلحنون في تلاوة سفر الكنيسة بينما كان معلموا قرطبة قد أسسوا مكتبة تضارع في ضخامتها مكتبة الإسكندرية العظيمة ...." [2].

---

1 ــ بلقاسم مصباحي: مخطوط: كيف تحفظ القرآن الكريم، 09 ــ 10؛ وقارن بالنفراوي: الفواكه الدواني ط دار الفكر، بيروت، لبنان، 36/1.

2 ــ عبد الله ناصح علوان: تربية الأولاد في الإسلام، ط3، دار السلام، حلب، سورية، 254/1 .

وهذا كله أيام تمسكنا بالقرآن الكريم وتدريسه لناشئتنا. أما اليوم فلما قلى المسلمون القرآن ولم يهتموا بتدارسه أصبحوا يستوردون مناهجهم من الغرب الذي كان أشرافه وسادته لا يحسنون حتى توقيع أسمائهم في يوم ما.

وإذا ما استعرضنا بعض الصفحات الذهبيّة من تاريخنا المجيد فإننا نجد سلفنا الصالح كان دائما حريصا على أن تكون أول مرحلة تعليمية للطفل هي أخذه بقراءة القرآن الكريم. ومن ذلك ما قاله هشام بن عبد الملك لسليمان الكلبي مؤدب ولده: »إن ابني هذا هو جلدة ما بين عينيَّ. وقد وليتك تأديبه. فعليك بتقوى الله وأدِّ الأمانة. وأوَّل ما أوصيك به أن تأخذه بكتاب الله. ثم روِّه من الشعر أحسنه. ثم تخلل به في أحياء العرب. فخذ من صالح شعرهم. وبصره طرفا من الحلال والحرام. والخطب والمغازي"[1].

كما أشار ابن خلدون في مقدمته إلى أهمية تعليم القرآن للأطفال وتحفيظه وأوضح أن تعليم القرآن الكريم هو أساس التعليم في جميع المناهج الدراسية في مختلف البلاد الإسلامية لأنه شعار من شعائر الدين. يؤدي إلى تثبيت العقيدة ورسوخ الإيمان [2].

هذا القرآن الكريم الذي هو قلب الرحى. وأسُّ البناء في مدارسنا القرآنية وإرث أمتنا الإسلامية. لقد كان الشعب الجزائري من أشد شعوب المعمورة تمسكا به. إذ لم تستطع فرنسا بقطها وقضيضها أن تثني الشعب الجزائري عن مدارسته في القرى. والمداشر والمشاتي بل حتى في رؤوس الجبال. إذ كان يدرس للمجاهدين، ولما استقلت الجزائر في سنة 1962م تركت فرنسا آلاف المعلمين بالفرنسية وسط مجموعة من المعلمين الفرنسيين.

---

1- تربية الأولاد في الإسلام: 145/1.
2- المصدر نفسه: 151/1.

وقد كان هذا الكم الهائل من المثقفين بالفرنسية مقابل نزر قليل من مثقفي العربية مرده إلى إصدار فرنسا لمرسوم 13 فيفري 1883 الذي ينص على أن التعليم لا يكون إلا باللغة الفرنسية[1].

قال أحمد توفيق المدني: " كان التعليم أيام الحكومة الفرنسية استعماريا بحتا. لا يعترف باللغة العربية. ولا يقيم لوجودها أي حساب. فاللغة الفرنسية هي وحدها لغة التدريس في كل مراحل التعليم"[2]

هذا وإن فرنسا قد وضعت شروطا مشددة للتعامل مع اللغة العربية في التعليم. نجملها فيما يأتي[3]:

1 ـ اقتصار التعليم على تحفيظ القرآن الكريم لا غير.

2 ـ عدم التعرض لتفسير الآيات التي تدعو إلى التحرر من الظلم والاستبداد.

3 ـ استبعاد دراسة التاريخ العربي والإسلامي والتاريخ المحلي.

4 ـ استبعاد دراسة الأدب العربي بكل فنونه.

5 ـ وإلى جانب ذلك عمد الاستعمار إلى فرنسة الإدارة والاقتصاد والتعليم. وحارب العقيدة الإسلامية. وجعل من مساجدها كنائس. وثكنات. بل واتخذ منها أحيانا اصطبلات"[4].

وكان لزاما على المخلصين لدينهم ولغتهم ووطنهم. أن يدقوا ناقوس الخطر وأن يتساءلوا من يدرس في هذه المدارس المترامية الأطراف عبر التراب الوطني. ومن يلقن أبناءنا تاريخهم وهويتهم باللغة العربية؟ ووجدوا أنفسهم أمام بحر متلاطمة أمواجه. مرغدة أزباده. مزمجرة

---

1 – رابح تركي، التعليم القومي والشخصية الوطنية. ط الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، 1395 هـ/ 1975 م، ص123.

2 – أحمد توفيق المدني: جغرافية القطر الجزائري، ط2 1963، دار المعارف، القاهرة، ص138.

3 مقابلة شخصية مع الأستاذين: بوجمعة جعلاب، ومحمد الأخضر بن دالي حسين، اللذين عايشا تطبيق هذه الشروط الاستعمارية في القطر الجزائري.

4 ـ التعريب في الجزائر، المؤتمر الثاني ديسمبر 1973، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، ص 04.

عواصفه. ولكن سرعان ما تبدد تخوُّفهم. إذ كان كسحابة صيف. وذلك بانبراء طلبة المدارس القرآنية من حفظة القرآن الكريم للتدريس في هذه المدارس التي كان يظن الفرنسيون أنها لن تقوم لها قائمة بعد الاستقلال.

وعليه فأقول وقبل أن أبين كيف ساهمت المدارس القرآنية في تقوية النظام التربوي أقول: لقد حفظته منذ الوهلة الأولى للاستقلال من التفرنج والتفرنس والتغريب. فحافظ خريجوا هذه المدارس القرآنية على عروبة التعليم وأصالته مفوتين على الاستدمار[1] الفرنسي فرصة بقائه في مدارسنا بأفكاره ومناهجه التي لا تتفق ومبادئنا الإسلامية الأصيلة.

وإيمانا من الدولة الجزائرية بمنزلة القرآن ومدارسه في الحفاظ على الهوية الوطنية والشخصية الجزائرية خصصت إعانات لأصحاب هذه المدارس. إذ كانت تعطي كل مدرس 10000 سنتيما تشجيعا له على مهمته النبيلة. وهذا في الستينيات ثم اعترفت بهم كموظفين رسميين في سلك الشؤون الدينية. وهذا في السبعينيات. اعترافا منها بما بذلوه في الحفاظ على المدرسة الجزائرية بعد الاستقلال التي لولا صنيعهم لأغلقت أبوابها - لا قدَّر الله - أو لاستمرت بطرائق ومناهج الاستدمار الفرنسي الغاشم[2].

بعد بياننا للدور الفعال الذي لعبته المدارس القرآنية في الحفاظ على مدارسنا النظامية وهويتنا المنبنية على العروبة والإسلام ننتقل إلى تبيان كيفية مساهمتها في دعم النظام التربوي وذلك من خلال النقاط الآتية[3]:

---

1 ــ مقابلة شخصية مع بعض إطارات التربية والتعليم، وهم: محمد الأخضر بن دالي حسين، مفتش متقاعد، بوجمعة جعلاب، أستاذ بجميع مراحل التعليم من الابتدائي إلى الجامعي متقاعد، بلقاسم مصباحي إطار سام في الدولة ومدرس بالمدارس الجزائرية أثناء الاستقلال. متقاعد، عبد السلام بن لهشيلي إطار سابق في وزارة التربية، ومتقاعد حاليا .

2ــ لقد استقينا هذه المعلومات من محاورة بعض الأساتذة في الموضوع منهم: الدكتور مولود سعادة، منصور رحماني، اسعيد عليوان، بوجمعة جعلاب، محمد الأخضر بن دالي حسين.

1 ـ الاستعداد للدراسة و التلقي: إن وجود التلميذ في المدرسة القرآنية مع مجموعة من التلاميذ في مثل سنه تولد فيه الاستعداد المسبق للدراسة. بحيث يجده المعلم في المدرسة النظامية جاهزا للتلقي والتعلم.

قال ابن سينا: "ينبغي أن يكون مع الصبي في مكتبه صِبْيَةٌ من أولاد الجلة حسنة آدابهم، مرضية عاداتهم. فإن الصبي عن الصبي ألقن. وهو عنه آخذ. وبه آنس ... " [1].

2 ـ القدرة على الاستيعاب، وتقوية الذاكرة: إذ قد يحفظ المتعلم في المدرسة القرآنية القرآن كله قبل بلوغه سن السادسة. وهي سن الدخول الرسمي للمدرسة النظامية وبالتالي يدخل مدرسته الجديدة وهو مزود برصيد هائل من المخزون العلمي. مما يساعده في مدرسته على حفظ ما يقدم له من معارف وعلوم.

3 ـ احترام الزمن: فهو في مدرسته القرآنية مرتبط بوقت معين لحفظ ما أخذه من القرآن الكريم. إذ لا يسمح له بتجاوز ذلك الوقت. مما يغرس في نفسه احترام الزمن. ويؤصل فيه حب الانضباط. مما يدفعه إلى تطبيق ذلك في جميع مجالات حياته بدءا من احترام مواقيت حصصه الدراسية في مدرسته الجديدة. وانضباطه في حفظ ما يقدم إليه من معارف في وقتها المطلوب.

4 ـ التدريب على النطق السليم: إذ لا شك أن تعامل التلميذ في المدرسة القرآنية مع أبلغ نص على ظهر البسيطة سيقوِّم لسانه. ويساعده على خروج الحروف من مخارجها المنوطة بها. لا سيما وأنه يتعامل من نص مقدس مطالب فيه بالالتزام بحرفية النص صورة ولحنا ومخرجا. وهذا بلا ريب سيساعده على النطق الصحيح والسليم في مدرسته الجديدة. وقد تحدثنا مع بعض المعلمين في الميدان فأكدوا لنا أن في منطقة ولاية سكيكدة كثيرا من المتعلمين لا يفرقون في النطق بين حرفي التاء والثاء. وبين الدال والذال. مما ألجأ المعلمين إلى أن يفرقوا لتلاميذهم بين هذه الحروف بقولهم تاء الحوت وثاء الثور. وذال الذباب. ودال الدب. وفي المقابل يوجد بعض

[1] ـــ رسالة السياسة. ابن سينا، دار الفكر، بيروت. لبنان: ص 15.

التلاميذ ورغم تواجدهم في نفس المنطقة إلاّ أنهم ينطقون هذه الحروف نطقا سليما. ولما بحث المعلمون عن السبب وجدوا جلهم يحفظون شيئا لا بأس به من القرآن الكريم. مما يعني أنهم كانوا أبناء للمدرسة القرآنية قبل التحاقهم بمدارس وزارة التربية والتعليم.

5 - صنع الدافعية نحو الإبداع والتفوق: وهذا لكون النص القرآني مفتوحا على كل العوالم ماضيا وحاضرا ومستقبلا. إضافة إلى عالمي الغيب والشهادة. مما يدفع الدارس له إلى سبر جميع هذه الأغوار قصد الوصول إلى الاستكشاف في جميع المجالات. ولا شك أن شخصا بهذه المواصفات سيكون متفوقا في مدرسته النظامية. إذا ما نظرنا في سير جل النوابغ والأذكياء من أبناء الأمة الإسلامية فإننا نجدها تصدر بعبارة: "حفظ القرآن الكريم في سن مبكرة".

6 - المحافظة على اللغة العربية: لقد حافظت المدارس القرآنية على كيان اللغة العربية، وصرحها الشامخ. ولا أدل على ذلك من تصدي تلاميذها لمهمة التعليم وتعريب المناهج ومحتوياتها مع خروج السلطات الاستدمارية من الجزائر. ولولا هذه المدارس لذهب ريح اللغة العربية في بلادنا. ولهوت في قعر سحيق ولخرجت المدارس أجسادا جزائرية بعقول فرنسية. ورحم الله الشيخ مبارك الميلي حين قال: "ومن أعرض عن اللغة العربية. فقد أعرض عن ذكر ربه"[1].

بعد بياننا لدور المدرسة القرآنية في شد أزر النظام التربوي وتقويته. وذلك من أجل النهوض بناشئتنا ليكونوا كما تمثلهم الشيخ البشير الإبراهيمي حين قال: "أتمثله متساميا إلى معالي الحياة عربيد الشباب في طلبها. طاغيا عن القيود العائقة دونها. جامحا عن الأعنة الكابحة في ميدانها. متقد العزمات. تكاد تحتدم جوانبه من ذكاء القلب. وشهامة الفؤاد. ونشاط الجوارح"[2].

---

1 ــ أنور الجندي: الفكر والثقافة في شمال إفريقيا، ط دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، ص 301.
2ــ المختار في الأدب والنصوص والنقد والتراجم للسنة 3 ثانوي، ط المعهد التربوي الوطني، الجزائر، ص264.

وهنا يجدر بي أن أتكلم عن المدارس القرآنية. التي ساهمت بقسط وافر في الحفاظ على الهوية الوطنية. أن أذكر هنا بكل فخر واعتزاز تجربة جمعية النور للمحافظة على القرآن الكريم - بقسنطينة.

هذه الجمعية التي كانت امتدادا لجمعية الإصلاح الأخلاقي والاجتماعي. التي تأسست سنة 1966م لتستمر بهذا الاسم لغاية 1978م حيث خشي عليها من الحل في تلك الفترة فزاولت نشاطها تحت اسم المركز الثقافي للهلال الأحمر الجزائري إلى غاية 1990م. ومن هذه السنة إلى يومنا هذا تسمت بجمعية: "النور للمحافظة على القرآن الكريم" وخلال هذه العشرية الأخيرة فقط استطاعت أن تقدم ما يأتي[1]:

1 - مستوى التلاميذ المتعلمين بمدارسها التحضيرية فوق العادي. ولا أدل على ذلك من إدخال الدارسين بها إلى الصف الثاني والثالث بالمدارس النظامية دون مرور بالصف الأول. وذلك لكون مستواهم يفوق ذلك بكثير.

2 - خرجت ما يزيد عن 293 حافظا لكتاب الله كله مع دراسته خلال الأربع سنوات المقرَّرة كمدة دراسية لأزيد من 16 مادة في مختلف علوم الشريعة كالتفسير والتجويد. وعلوم القرآن والعقيدة. وفقه العبادات. والمعاملات. والأحوال الشخصية. والمواريث والسيرة ومصطلح الحديث. والحديث التحليلي. وعلم النفس التربوي. واللغة العربية. بنحوها وصرفها وإنشائها وإملائها ونصوصها. ومقالاتها الأدبية.

هذا ويرتقب أن تتخرج هذه السنة 26 حافظة لكتاب الله تعالى. وننبه هنا إلى أن جل هؤلاء المتخرجين قد ساهموا في سد ما تعانيه مساجدنا من فراغ إذ زودت هذه المدرسة نظارة قسنطينة بأزيد من 350 معلم ومعلمة للقرآن و20 إماما للصلوات.

---

1ـ انظر في ذلك تقرير الجمعية السنوي المؤرخ في 20 رجب 1421هـ/18 أكتوبر 2000.

3 ـ وفرت حوالي 15 أستاذا من خريجي الجامعة لتأطير أزيد من 350 طالبا وطالبة موزعين على أربعة مدارس و11 فوجا دراسيا.

4 ـ لم يكن استقبالها للطلبة محصورا في محيط قسنطينة بل تجاوزته إلى سبع ولايات مجاورة كالمسيلة والبرج وسطيف وسكيكدة وأم البواقي وبسكرة وقالمة. واستطاعت أن تكفل لهم الإيواء والإطعام وهذا بالتنسيق مع مراكز الخدمات الاجتماعية.

5 ـ اتبعت في نظامها الداخلي ووثائق مدرسيها وعطلها الموسمية والسنوية على نظام وزارة التربية والتعليم.

فنجدها تطلب من الأستاذ الذي يعمل بمدارسها عشرين ساعة في الأسبوع أن يكون مزودا بالكراس اليومي. وكراس النصوص. ودفتر المناداة ومذكرات الدروس اليومية. والتوزيع الشهري للدروس.

6 ـ عملت على تأسيس مكتبة تزخر بجملة من المصادر والمراجع التي يحتاجها الطالب في مراحل دراسته للسنوات الأربع التي يقضيها بمدارس جمعية النور للمحافظة على القرآن الكريم.

من خلال ما سبق تبين لنا كيفية مساهمة المدرسة القرآنية في ترقية المدرسة التربوية وتفعيلها؛ وهنا نقول: إذا كان هذا هو ديدنها كان لزاما علينا أن نفكر جديا في الطريق الكفيلة باستمرار نشاط هذه المدارس باعتبارها من روافد النظام التربوي. وعليه أرى للمحافظة على هذه المدارس من الارتخاء أو الزوال التدريجي القيام بالآتي:

1 ـ فتح حسابات بنكية وبريدية لهذه المدارس عبر أرجاء الوطن للمحسنين شعارها: " مثل الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل في كل سنبلة مائة حبة والله يضاعف لمن يشاء".

2 ـ بعث وتفعيل نظام الأوقاف من جديد حتى تكون مداخيله مصدرا لتمويل هذه المدارس، وغيرها من المشاريع الخيرية.

3 ـ تخصيص وزارة الشؤون الدينية والأوقاف القسط الأكبر من ميزانيتها للإنفاق على هذه المدارس بدءا من بنائها. وانتهاء بتحديث مناهجها. وطرائق التعليم بها.

4 ـ تخصيص حملات دعائية في وسائل الإعلام المرئية والمسموعة والمكتوبة قصد تعريف الناس بأهمية المدرسة القرآنية وبيان دورها في تفوق وصقل نفوس فلذات أكبادنهم.

5 ـ إدخال سهم "وفي سبيل الله" من الزكاة في تطويرها. وتزويدها بما تحتاجه من مصادر ومراجع تشد عضدها وتقوي عزيمتها.

6 ـ الانتقاء الدقيق للمؤطرين بهذه المدارس على أن يكون معيار الانتقاء منضبطا بضابطي العلم المتين والخلق الرصين.

7 ـ عقد الوزارة لدورات علمية بين الحين والآخر لإعادة رسكلة المؤطرين لهذه المدارس قصد اطلاعهم على طرق التدريس الحديثة من جهة. وتزويدهم بنظريات علم النفس التربوي من جهة أخرى قصد التعرف أكثر على نفسية وميولات الطلبة المنتمين للمدرسة القرآنية.

8 ـ إحداث مكافآت نفيسة وذات بال للمتفوقين في هذه المدارس.

9 ـ رفع مرتبات المشرفين والمؤطرين لهذه المدارس ومساواتهم بمدرسي التعليم العام.

10 ـ إحداث توأمة بين وزارة الشؤون الدينية وزارة التربية الوطنية وذلك بالتنسيق الجاد قصد جعل كل من برامج المدرستين تصبان في بوتقة خدمة المبادئ الإسلامية السامية، والحفاظ على اللغة العربية. والشخصية الجزائرية المتمسكة بقيمها الأصيلة ومثلها العالية.

11ـ الاعتراف بالشهادات العلمية الممنوحة من طرفها ـ لاسيما ـ إذا كانت هذه المدارس على شاكلة جمعية النور للحفاظ على القرآن الكريم .

وهذا حتى يكون المتخرج منهما مرتبطا بالإسلام دينا ودولة. وبالقرآن العظيم نظاما وتشريعا. وبالتاريخ الإسلامي عزا ومجدا. وبالثقافة الإسلامية العامة روحا وفكرا وبالارتباط الحركي للدعوة الإسلامية اندفاعا وحماسة[1].

وفي الختام أقول: إننا نريد أن نصل بالمدرسة القرآنية وبالمنظومة التربوية معا إلى تكوين أجيال كما وصفهم الشاعر:

شباب ذللوا سبل المعالي وما عرفوا سوى القرآن دينا

تعهدهم فأنبتهم نباتا كريما طاب في الدنيا غصونا

إذا شهدوا الوغى كانوا كماة يدكون المعاقل والحصونا

وإن جن المساء فلا تراهم من الإشفاق إلاَّ ساجدينا

كذلك أخرج القرآن قومي شبابا مخلصا حرا أمينا

وعلمه الكرامة كيف تبنى فيأبى أن يقيد أو يهونا

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

---

[1] ــ عبد الله ناصح علوان، تربية الأولاد: 286/1.